الحياة الطيّبة
السنة 21
العدد 36
شتاء- ربيع 2017 م
قراءات علمية

تحليل مباني الهرمنيوطيقا عند شلايرماخر

د. الشيخ محمد حسين مختاري[1]

مدخل:

1. تعريف الهرمنيوطيقا:

الهرمنيوطيقا علم التأويل أوفنّ التأويل، وهو عبارة عن نظريّة تفسير المعاني أو فلسفة تفسير المعاني.

وهذا الاصطلاح يونانيّ المنشأ، وهو مأخوذ من كلمة «هرمس» التي تعني الإله الرسول، حيث جاء في الأساطير اليونانيّة أنَّ «هرمس» هذا كان يفسِّر ويؤوِّل رسائل الآلهة التي عادة ما تكون غامضة ومُبهمة، وبالتالي كان صلة وصل بين عالم اللاهوت وعالم الناسوت. وبذلك، كانت الهرمنيوطيقا حينها بصدد تقويم العلاقة بين النصوص والباحثين عن فهمها.

وكان أوّل طَرح لمسألة الهرمنيوطيقا في مجال تفسير النصوص؛ أي في المجالات التي تهدف إلى فهم المراد من النصوص؛ أي فهم النصّ بناءً على القصد المُندكِّ فيه، ثمّ توسّعت دائرة مفهومها لتشمل كلّ ما له معنى ويقبل التفسير والتأويل.

ومن هنا، فقد اتُّخِذَت الهرمنيوطيقا طريقةً لتأويل النصوص الدينيّة

(1) باحث في الفكر الإسلاميّ ورئيس المركز العالي للدراسات التقريبيّة التابع للمجمع العالميّ للتقريب بين المذاهب الإسلاميّة، من إيران.

المقدّسة، وهي أقرب ما تكون إلى فقه اللغة.

وبناءً على هذا النوع من التفكير فإنّ كلّ ظاهرة، طبيعيّةً كانت أم إنسانيّةً؛ كالأشكال، والصور، والعلامات، والعادات والتقاليد الاجتماعيّة، والأقوال والأفعال، والأصوات، والمكتوبات... قابلة للتفسير والفهم. وإذا كان هدف فنّ التفسير مساعدة الإنسان على اكتساب الفهم الكامل، فإنّ وظيفة الهرمنيوطيقيّفي هذه الحالة تكمن في بيان أهداف هذا الفهم، والموانع التي تواجهه وكيفيّة رفعها، والطرق المؤدّية إليه.

2. أهمّيّة الهرمنيوطيقا:

إنّ علم الهرمنيوطيقا أساس لكلّ العلوم والمعارف القائمة على فهم الظواهر والآثار، ويشمل كلّ ما له علاقة بذلك؛ ابتداءً من الهيكل الوجوديّ للإنسان، عبورًا بنظريّة المعرفة، وانتهاءً بنظريّة الوجود.

فلم تعد الهرمنيوطيقا تختصّ بفلسفة معيّنة وفكر معيّن في زمان خاصٍّ، وإنّما أصبحت محطّ اهتمام الفكر المعاصر أيضًا، وموضوعًا أساسًا في العلوم المختلفة؛ كعلم الاجتماع، والفنّ، واللغة، والنقد الأدبيّ، والفقه، والحقوق، وغيرها من العلوم، وإنْ كانت جذورها الأولى ترجع إلى أوائل القرن التاسع عشر.

وعلى أيّ حال؛ فقد وُجدت الهرمنيوطيقا للتفسير بشكل عامّ، وقد ازدهرت في زمان الأوروبيّين (الرومانطيقيّين أو الرومانسيّين)، ثمّ أصبحت محطّ اهتمام المفكّرين في مختلف المجالات. ومن هنا، كانت الهرمنيوطيقا المحور الأساس لكثيرٍ من الباحثين والمفكّرين من مختلف الاختصاصات.

ومن المؤشّرات على أهمّيّة الهرمنيوطيقا أنّه لا يوجد في حياة البشر شيءٌ أهمّ من فهم بعضهم لبعضهم الآخر، فعثور الإنسان على طريق لفهم من كان عاجزًا عن فهمهم بشكل صحيح لهو لذّة ما بعدها لذّة. وعندما نواجه مظاهر غنيّة بالمعاني، فإنّنا نحاول فهم هذه المعاني المندكّة في هذه المظاهر الأعمّ من القول، والفعل، والنصّ، والأشكال

الثابتة، والجمادات، والأشكال الفنيّة، واللغة، والموسيقى،... فكلّما وصلنا شيء صادر من غيرنا تحرّكت لدينا القدرة الإدراكيّة لفهمه.

3.مراحل تطوّر علم الهرمنيوطيقا:

كانت الهرمنيوطيقا في مراحلها الأولى ناظرة إلى النصوص الدينيّة، وتتوخّى الكشف عمّا وراء النصوص المقدّسة من المعاني المبهمة. ثمّ جرى التوسّع في إطلاقها لتشمل النصوص الأعمّ من الدينيّة، كالأدبيّة، وأمثالها. وقد سلك هذا العلم منحًى آخر مع شلايرماخر (Schleiermacher)، بسبب تمركز مباحثه الهرمنيوطيقيّة حول ظاهرة الفهم، حيث فتح طريقًا جديدًا للأجيال القادمة، وأصبحت آراؤه الهرمنيوطيقيّة بمنزلة المحرِّض والمنطلق لطرح مباحث جديدة من قبل المفكّرين الآخرين؛ نظير: هايدغر، وغادامير.

وعليه؛ يمكن تقسيم المنحى التاريخيّ الذي مرّ به علم الهرمنيوطيقا إلى ثلاث مراحل؛ هي:

أ. المرحلة الأولى: مرحلة«**المنهجيّة**» (methodology)، أو ما يُصطلح عليه بـ «**مرحلة الهرمنيوطيقا الكلاسيكيّة**».

بدأت بوادر هذه المرحلة منذ القرن الرابع عشر، ولكنّها بدأت تتبلور بشكل جلي ابتداءً من القرن السادس عشر، حيث كان الهرمنيوطيقيّون في ذلك الوقت يهتمّون بتفسير النصوص المقدّسة وتأويلها؛ نظير الإنجيل والتوراة. وممّا يعتقد به أتباع هذه الهرمنيوطيقا أنّ المخاطب عندما يواجه نصًّا معيّنًا سوف يواجه صعوبة في الفهم؛ نتيجة الإبهام والغموض الموجود فيه. ولذا، يجب عليه بالدرجة الأولى السعي إلى رفع هذا الإبهام والغموض حتّى ينكشف له المعنى الحقيقي للنصّ.

فالغرض من علم الهرمنيوطيقا هو رفع الإبهام عن النصّ، ووظيفة الهرمنيوطيقيّ أو المفسِّر إزاحة هذا الإبهام؛ بمعنى أنَّه إذا كنت في صدد الكشف عن المعنى الحقيقيّ للنصّ أو المغزى والرسالة الموجّهة من النصّ،

فستواجه موانع يجب عليك في الدرجة الأولى تذليلها؛ حتّى ينكشف لك المعنى الحقيقيّ من النصّ.

ويعتقد أصحاب هذا الفكر الكلاسيكيّ أنّ النصّ تجلٍّ لقصد المؤلِّف ونيَّتِه. وبعبارة أخرى: الألفاظ والمصطلحات الموجودة في النصّ مركَّبة؛ حيث تكون تجلّيًا ومظهرًا لقصد المؤلِّف.

ب. مرحلة «**نظريّة المعرفة**» (epistemology) أو ما يُسمّى بـ «**مرحلة الهرمنيوطيقا الرومانسيّة أو الرومانطيقيّة**».

بدأت هذه المرحلة مع الألمانيّ شلايرماخر الذي برز في مجالات وعلوم أخرى في بلاد الغرب، وكان الرائد فيها؛ كعلم الاجتماع الدينيّ، والدراسات الدينيّة، والكلام الجديد، والتعدّديّة، والتجربة الدينيّة؛ مضافًا إلى دوره الأساس في تكامل علم الهرمنيوطيقا ونضجه. وبتعبير «دِلتاي»، فإنّ ما قدّمه شلايرماخر للهرمنيوطيقا هو نفسه ما قدّمه «كانت» للفلسفة؛ وذلك أنّه حقَّق ثورة ونهضةً في مجال المعرفة الهرمنيوطيقيّة إلى درجة أنَّ نشوء الهرمنيوطيقا الفلسفيّة ووجودها وآراء أمثال: «هايدغر» و«غادامير» كانت رهنًا للأفكار والآراء الهرمنيوطيقيّة والفلسفيّة لـشلايرماخر.

ج. مرحلة «**علم الوجود**» (Ontology) أو ما يُسمّى بـ «**مرحلة الهرمنيوطيقا الفلسفيّة**».

جرى الانتقال في هذه المرحلة من المنهجيّة ونظريّة المعرفة إلى علم الوجود. بينما كان كلّ جهد الباحثين في المرحلة الكلاسيكيّة منصبًّا على كشف المعنى الحقيقيّ ومغزى المؤلِّف من النصّ.

وقد تبلورت هذه المرحلة على يد «هايدغر»، ووصلت إلى أوج تكاملها على يد تلميذه «غادامير» إلى درجة أنّه لو لم يكن «غادامير» موجودًا ليكمل مابدأه هايدغر لذهبت جهود هايدغر أدراج الرياح. وكان غادامير تلميذًا وفيًّا لهايدغر، حيث استطاع أن يُضفي طراوة جديدة على مباحث الهرمنيوطيقا، وأن يطبِّق قواعد نظريّة الوجود لهايدغر في علم الهرمنيوطيقا.

ويعتقد كلٌّ من هايدغر وغادامير بأن لا علاقة لنا بقصد المؤلِّف والمتكلِّم ومغزاهما؛ وإنّما يجب التركيز على الفهم والماهيّة والوجود في مسألة الفهم. وبعبارة أخرى: فالبحث إنّما يتركّز على ما يعتمده المفسِّر عندما يواجه نصًّا ما. وبعبارة ثالثة: على أيّ أساس تقوم عمليّة الفهم وآليّته؟ فأتباع هذا الطرح الهرمنيوطيقي يرون أنّ المفسِّر عندما يواجه النصّ يقوم بتفسير هذا النصّ -أوتوماتيكيًّا وبدون وعي أو التفات-؛ طبقًا لخلفيّاته الذهنيّة وفرضيّاته وفهمه المتأثّر بزمانه وثقافته.

4. تقسيمات الهرمنيوطيقا:

جرى تقسيم الهرمنيوطيقا باعتبارات مختلفة إلى أقسام عدّة، فمن باب المثال قسّموها باعتبار المدى والنطاق، وباعتبار المنهج، وباعتبار السير التاريخيّ والمراحل المؤثّرة التي مرّت بها. وتفصيل الكلام فيها خارج عن نطاق البحث وهدفه.

5. غاية علم الهرمنيوطيقا:

إنّ غاية الهرمنيوطيقا هي رفع الإبهام والغموض عن النصوص. وبعبارة أخرى: إنّ في النصوص إبهامًا وغموضًا، ووظيفة علم الهرمنيوطيقا رفع هذا الإبهام والغموض طبقًا لقواعده. وعليه؛ فإنَّ النصوص الواضحة ليست بحاجة إلى هذا العلم[1].

ويعتقد شلايرماخر وكذلك تلامذته بأنّ أيّ نصٍّ لا يخلو عن الحاجة إلى الهرمنيوطيقا؛ بدليل أنّ الفهم الخاطئ وكيفيّة علاجه شَغَل البشريّة وكان محطّ اهتمامها منذ القدم، حيث إنّ الفهم الخاطئ لمطلب معيّن، ولو كان بسيطًا، يؤدّي إلى تصوّر معنى آخر غير المعنى المراد، ولأجل تفادي الوقوع في الفهم الخاطئ للنصوص، سواء أكانت مبهمة أم لا؛ فإنّنا بحاجة دائمًا إلى علم الهرمنيوطيقا لفهم هذه النصوص.

(1) نظير «المحكمات»، حيث لا طريق للإبهام والغموض إليها.

ويرى جملة من الباحثين والمحقّقين في علم الهرمنيوطيقا أنَّ الإبهام والغموض ليس ذاتيًّا للنصّ، وإنّما ثمّة موانع تحول دون الفهم الصحيح، والهرمنيوطيقا تقوم بتذليل هذه الموانع.فعمليّة التفسير الهرمنيوطيقيّ هي نوع من البحث عن العامل والمحفِّز من وراء وجود هذا النصّ أو الأثر. وبتعبير آخر: هناك بحث يُطرَح في الهرمنيوطيقا؛ ومفاده: أنَّنا لكي نفهم النصّ أو الأثر لابدّ من أنْ نعرف علل وجوده أيضًا. وهذا بدوره لا يتحقّق إلا إذا تمّ التعرّف إلى الوسط الفكريّ والذهنيّ والجغرافيا التي يعيش فيها المؤلِّف بشكل جيّد.

ويذهب الهرمنيوطيقيّون إلى أنَّ الأثر أثناء صياغتهأو تأليفه، إنَّما يتّخذ طابعًا وشكلًا معيّنًا يتناسب مع الفرضيّات والخلفيّات الذهنيّة الموجودة لدى المؤلِّف؛ بمعنى أنَّ هذه الفرضيّات والخلفيّات الذهنيّة الموجودة لدى المؤلِّف تؤثِّر في الأثر الصادر عنه. من باب المثال: فهم احتياجات المجتمع المتديّن، وتقويم الفضاء الفكريّ والثقافيّ الذي يعيش فيه، ومعرفة الشبهات المطروحة... وهي بمنزلة الباعث والمحفّز على كتابة كتاب يلبّي فيه هذه الاحتياجات، ويجيب عن هذه الشبهات والإشكاليّات.

كما يرون أنّ الخطوة الأولى للوصول إلى قصد المؤلِّف ومراده تكون عبر الرجوع إلى القرائن اللفظيّة وغير اللفظيّة، وإحصاء الألفاظ، وفهم فحوى الجُمل، ثمّ من خلالها يمكن التعرّف على الوسط الثقافيّ والخلفيّات الذهنيّة للمؤلِّف، فإنَّ لذلك كلّه دورًا أساسًا في كشف مراد المؤلِّف.

ومن العناصر التي تُعدّ مفتاحًا لأتباع الهرمنيوطيقا الفلسفيّة أنَّهم يعتقدون بعدم وقوف الفهم عند حدٍّ معيّن، وعدم الالتفات إلى مراد المؤلِّف، والاستقلال في الفهم والتفسير؛ حيث يكون الأساس والملاك أوّلًا وبالذات المفسّر وما يفهمه من النصّ. وبعبارة أخرى؛ عندما يواجه المخاطب نصًّا ما؛ فإنَّه يفسّره بحسب ما يفهمه هو وما لديه من الأفكار والخلفيّات الخاصّة والفرضيّات التي يعتقد بها.

بعد هذا المدخل الموجز في تعريف الهرمنيوطيقا وبيان أهمّيّتها ومراحل تطوّرها وتقسيماتها وغايتها، سوف نخصّص البحث في الآراء الهرمنيوطيقيّة لشلايرماخر الذي يُعتبر من الشخصيّات المهمّة والبارزة في مجال الدراسات الدينيّة والهرمنيوطيقيّة.

أولًا: محوريّة الفهم في الطرح الهرمنيوطيقيّ عند شلايرماخر:

لشلايرماخر الدور الأساس في وجود الهرمنيوطيقا، حيث قام بجمع آراء المذاهب القديمة وتركيبها وإظهارها على شكل هرمنيوطيقا، بعد إضافة مجموعة من المباني الجديدة إليها. ويعود الفضل إليه في نشأة هرمنيوطيقا معرفة الاصطلاحات، والهرمنيوطيقا التاريخيّة في القرن التاسع عشر، وكذلك الهرمنيوطيقا الفلسفيّة في القرن العشرين. ومع ذلك لم تتّضح إلى الآن مباحثه وآراؤه الوقّادة بشكل كامل ودقيق. ولعدّة عقود حافظت آراء دِلتاي في شلايرماخر على قيمتها الذاتيّة ولقيت القبول من الجميع، وقد عرَّفه، في مقالة له بعنوان «نبع الهرمنيوطيقا» طُبعت في سنة 1900م، على أنّه من أنصار نظريّة «الشعور النفسيّ» (psychological empathy) للشخصيّة الخلاّقة والمبدعة للمؤلِّف والمتكلِّم، والتي انعكست في كتاباته[1].

وتجدر الإشارة إلى أنّ فهْم آثار شلايرماخر من قِبَل مخاطبيه معقَّد ومشكل نوعًا ما؛ لأنَّه عندما كان يدرِّس المباحث الهرمنيوطيقيّة المشهورة في ذلك الزمان في جامعة «برلين»، كان يعتمد على مدوّناته الخاصّة التي كتبها بخطّ يده بشكل مفهرس وكلّيّ ومختصر ومضغوط. وعندما كان يلقي محاضراته كان يقوم بتوضيحها وتفصيلها لطلابه. ثمّ بعد وفاته نُشرت هذه المدوّنات مضافًا إلى الكرّاسات التي كتبها طلابه مستفيدين من محاضراته؛ بوصفها جزءًا من مجموعة آثاره.

وقد طُبعت مدوّناته التي كتبها بنفسه كاملة وبشكل متقن ومستقلّ مؤخَّرًا، ولأوّل مرّة صار بالإمكان الحصول على آثاره وكتاباته، ولكنّ مطالعتها

(1) The Hermeneutics, Reader, p.8

وفهمها ليس بالأمر السهل؛ لأنَّ عباراتها غالبًا ما تكون مقطَّعة ومبهمة، ولا سيّما أهمّ المباحث فيها، حيث يقف القارئ أمامها عاجزًا عن فهمها؛ ما يشكِّل عبئًا عليه في الربط بينها. ومع ذلك لا يمكن إنكار أنَّ هذه الكتابات تُعتبر من أغنى وأعمق ما سُطِّر في نظريّة الهرمنيوطيقا، والصياغة الخاصّة والنادرة للعبارات تدلّ على خلاّقيّته وإبداعه.

وتُعدّ جهوده التي بذلها في هذا المجال جزءَ علّة في الحركة تجاه إيجاد الهرمنيوطيقا الرومانسيّة التي ترجع إلى ما بين العامّين (1795 و 1810م)، الحركة التي غيّرت الحياة الفكريّة لأوروبا المركزيّة.

إنّ ظهور العلوم الجديدة؛ نظير علم الجماليّات الجديد، وعلم معرفة الشعر، على يد الفلاسفة؛ أمثال: فيتشه، وشلينغ، والشعراء؛ أمثال: نوفاليس (Novalis)، وتيك (Tieck)،وفاكنرودر (Wackenroder)، وكذلك النقّاد، فتح أبوابًا وآفاقًا جديدة للفكر الهرمنيوطيقيّ. ومنذ ذلك الزمان أصبحت الهرمنيوطيقا مترافقة مع أفكار صاحب الأثر وآرائه، واعتُبِرَ صاحب الأثر الفنيّ مبدعًا، واعتُبِرَت آثاره الفنيّة تجلّيًا لإبداعه.

وقد طرح المفكِّرون الهرمنيوطيقيّون -بالتعاون مع الشعراء والفلاسفة في ذلك الزمان- تصوّرًا للانسجام العضويّ الحاصل في العمل الفنيّ الذي كان يُطرح بعنوان الشكل الداخليّ للعمل، ويُربط بالطبيعة الرمزيّة الذاتيّة له. وبشكل مفاجئ أصبح الفنّ القديم لتفسير النصوص طافيًا على السطح وله الغلبة على باقي الفنون.

وقد تمَّ إبداع الأفكار الهرمنيوطيقيّة حتى أصبحت جزءًا من الهرمنيوطيقا، على يد المنظِّرين للهرمنيوطيقا الرومانسيّة، ولا سيّما شلايرماخر، وفيلهلم فون همبولت؛ حتَّى إنَّها صارت أهمّ من الأفكار المطروحة في علم الجماليّات الجديد[1].

ومن المباحث الهرمنيوطيقيّة لشلايرماخر التي أضافت فصلًا جديدًا

(1) The Hermeneutics, Reader, p.8

إلى المباحث الهرمنيوطيقيّة: بحث الهرمنيوطيقا العامّة، حيث كانت الهرمنيوطيقا، إلى ما قبل شلايرماخر، عبارةً عن مجموعة من القواعد والضوابط المدوّنة حول كيفيّة الكشف عن المعنى وما يرمي إليه المؤلِّف، بحيث إذا ما أُعمِلَت هذه القواعد والضوابط أمكن الوصول إلى المغزى النهائيّ للنصّ والكشف عن قصد المؤلِّف ومراده. وأمّا عندما بدأت نظريّات شلايرماخر -سواء من خلال محاضراته أم من خلال كتاباته- تظهر إلى العلن، فقد تغيّر مسار المباحث الهرمنيوطيقيّة، وجُعِلَ الفهم والتفهّم حجر الرحى الذي تدور عليه المباحث الهرمنيوطيقيّة. فشلايرماخر كان يهدف، من خلال هرمنيوطيقاه وقواعده الخاصّة، إلى الاجتناب عن سوء الفهم؛ ولأجل ذلك -وبناءً على ما رآه شلايرماخر- تغيّرت الهرمنيوطيقا إلى «فنّ الفهم».

ويرى شلايرماخر أنّ وظيفة التفسير هي تحسين الفهم، ويتضمّن ذلك إعادة البناء العينيّ والذهنيّ والتاريخيّ للخطاب، وكلّ فرد يمثّل المكان، وخطابه قابل للفهم في حدود تلك اللغة فقط (Context).

وقد كانت هذه التحوّلات والتغيّرات منشأً لظهور نظام فلسفيّ واسع اصطلح عليه بـ«الهرمنيوطيقا الفلسفيّة».

وبنظر شلايرماخر لم تكنْ هناك هرمنيوطيقا تصنع فهمًا؛ وما كان موجودًا إنّما هو عبارة عن أكثر من هرمنيوطيقا تخصّصيّة. ولذا، كان من الضروريّ طرح نظريّة تجمع في داخلها بين أنواع التأويل المختلفة؛ حيث توحّد بينها وتجعلها منسجمة بعضها مع بعض، مع غضّ النظر عن موضوعها؛ لأنّ شلايرماخر أوّل من التفت إلى أصول الفهم ومبادئه، واهتمّ بها. ولذلك لُقِّب بـ«أبو الهرمنيوطيقا المعاصرة».

ولعلّ أهمّيّة شلايرماخر تكمن في أنّ الهرمنيوطيقا التي أوجدها تشمل جميع أنواع التأويل والتفسير ومجالاتهما، وكان يشدِّد في هرمنيوطيقيّته على أنَّ الفهم عند كلّ فرد محلّ تأمُّل، ويحتاج إلى مساعدة في حصوله، وكان يصرّ على أنّ الجدّ والاجتهاد في سبيل التأويل لن ينتهي إلى الفهم؛ بل

سوف تكون نتيجته عكسيّة؛ لأنّ التأويل الدقيق يبدأ بالفهم الخاطئ. ومن هنا، كانت الهرمنيوطيقا التي أوجدها تبيِّن كيفيّة الاجتناب عن سوء الفهم. فلم يكن شلايرماخر يسعى إلى فهم الفهم، بل كان يسعى إلى هدايته.

وبعد شلايرماخر تطوّر علم التأويل بشكل لافت نوعًا ما، وظهرت آراء ونظريّات متعدّدة وجديدة متأثّرة بآرائه؛ ومنها: ما ذهب إليه فيلهلم دِلتاي، الذي يُعدّ من أتباع شلايرماخر، من أنَّ معنى النصّ متّحد مع القصد الذهنيّ للمؤلِّف.

ولا نغفل -أيضًا- عن أنَّ بعض الأفكار الأساس المعروفة في الهرمنيوطيقا نجدها في آراء شلايرماخر. فمثلًا: نجد أنّ لقاعدة «الكلّيّة» دورًا لافتًا في الهرمنيوطيقا. وقد اعتبر أست (Ast) في سنة 1808م أنَّ الفهم عبارة عن تكرار لعمليّة الخلق والإيجاد، وأيّد ولف(wolf) الخبير في اللغة هذا الأصل، حيث أكّد على ذلك في بحث وجوب تساوي وتطابق ما ندركه عن الآخرين مع ما يدركونه هم من أنفسهم.

وقد أجرى شلايرماخر في الهرمنيوطيقا ذات الحدود الواسعة سُنّتين اثنتين؛ هما: الفلسفة المتعالية (Transcendental philosophy) والغيبيّة، وذات التوجّه الرومانسيّ إلى حدٍّ كبير. واستفاد منهما في تدوين كيفيّة السؤال عن إمكانية التفسير الصحيح والمعتبر، وتدوين طرق السؤال، وإحداث طرق جديدة من التجريد في عمليّة الفهم والإدراك.

وقد شكّل تأكيد فيتشه (Fichte)على إبداع الأنا النشط والفعّال (active ego) داعيًا لشلايرماخر إلى اكتشاف قانون هرمنيوطيقاه الذي بموجبه يرجع أيُّ تفكير للمتكلِّم إلى وحدة الموضوع (الأنا النشط) في حالمن التكامل العضويّ. ومعها تتبدّل العلاقة بين الفرديّة والكلّيّة إلى نقطةٍ محوريّة في الهرمنيوطيقا الرومانسيّة.

فما لم يتيقّن الإنسان أنَّه بنفسه غير قادر على فهم معاني العبارات، فلن يكون قادرًا على الإدراك الصحيح بهذه السهولة.

إنَّ الوقوع في الفهم الخاطئ، والسعي إلى عدم الوقوع فيه مرّة أخرى يشكّلان العلة الأساس التي تكمن وراء البحث الحتميّ والأكيد، والذي يركّز عليها النظام الهرمنيوطيقيّ عند شلايرماخر.

ثانيًا: شلايرماخر واعتقادهبإبهام مطلق النصّ:

يرى شلايرماخر أنّ البشر لا يمكنهم تجنب التورط في الفهم الخاطئ، وممّا ينتج عن الفهم الخاطئ أنّ الإنسان عندما يواجه نصًّا، فإنَّه يراه مبهمًا وغامضًا؛ لأنَّ النصّ إنّما يكون واضحًا عندما يراه الذهن واضحًا عند مواجهته له، وتورّط الذهن في الفهم الخاطئ لا ينتج عنه سوى إبهام النصّ.

ويعتقد شلايرماخر أنَّ إبهام النصّ ليس إلاّ نتاج الفهم الخاطئ للبشر، وهذا الإبهام يسري إلى باقي النصوص؛ ما يعني -على الأقلّ- أنّ النصّ يصبح مبهمًا بنظر المفسِّر الذي يبحث عن المعنى.

ومن هنا، كان شلايرماخر يبحث عن قصد المؤلِّف، لكنّ عمله هذا اعتُبر مرحلة جديدة في الهرمنيوطيقا، وعندما دخل في مجال الهرمنيوطيقا طرح تساؤلات عدّة في هذا المجال، وباعتقاده أنّ الأصل في النصّ الإبهام وعدم الفهم. وقد سعى بنفسه إلى حلّ هذه المشكلة لكنّه لم يصل إلى نتيجة.

ولكنّه أعطى بعض الحلول من خلال التأكيد على عنصرين اثنين؛ هما:

أ. القواعد.

ب. الالتفات إلى الخصوصيّات النفسيّة للمتكلِّم[1].

ومن بعد ما طرحه شلايرماخر أصبحت الأسس الصحيحة للفهم الصحيح مطروحة بشكل عامّ وعالميّ.

ثالثًا: تعميم معنى النصّ عند شلايرماخر:

من أجل أنْ يسلك شلايرماخر طريقًا منطقيًّا في الإجابة عن الشبهات

(1) يعني أن نتعرّف على الأبعاد النفسيّة للمتكلِّم؛ حيث نتخيَّل أنفسنا نعيش في الظروف نفسها التي يعيش فيها المتكلِّم؛ حتَّى نستطيع أن نفهم نصّه.

المطروحة في زمانه، وجد نفسه ملزمًا بتبرير تعريف الإيمان، ثمّ قام بتفسير الوحي بالتجربة الدينيّة. وما تمّ بيانه ألهم به الشعراء.

ولكنّ المباحث التي يطرحها شلايرماخر ليست موجّهة إلى الشعراء فحسب؛ وإنّما هي أوسع من ذلك، فتشمل كلّ إنسان، وهو يرى أنّ كلّ إنسان يمكن أن يعيش التجربة الدينيّة بنحو من الأنحاء.

وأمّا بالنسبة إلى النصّ، فقد كان قبل شلايرماخر يُطلق في الغالب على الآثار المكتوبة؛ لكنّشلايرماخر تعدّى هذا الحدّ وأطلقه على ما له معنى، سواء أكان مكتوبًا أم ملفوظًا أم عادةً أم فنًا أم... ونقطة الانطلاق عنده عبارة عن سؤال مفاده: كيف يمكن فهم الخطاب، أيَّ خطاب، سواء أكان ملفوظًا أم مكتوبًا؟ وعلى هذا الأساس توسّع معنى النصّ بشكل تدريجيّ بعد شلايرماخر.

بل يمكن القول إنّ كل ما يقع موضوعًا لفهم الإنسان أو كلّ ما وُجد لأجل حكاية معنى أو قصد؛ سواء أكان من صنع الطبيعة أم الإنسان؛ مثل: اللغة بالمعنى الواسع للكلمة، يُطلق عليه «نصّ». فالنصّ موضوع للتفسير، لكنْ كيف يقع موضوعًا للفهم والتفسير؟ وعلم الهرمنيوطيقا يعطي الإنسان القدرة على فهم الحياة الطبيعيّة والحياة الإنسانيّة الشريفة ومفاهيم الأشياء وإدراكها. ونطاق هذا العلم واسع إلى حدّ أنَّه يشمل كلّ ظاهرة؛ إنسانيّة كانت أم طبيعيّة، وبأيّ شكل كانت؛ ثقافيّة أم فنيّة، وبشكل عامّ يشمل كلّ علم ومعرفة بكلّ ما تعنيه الكلمة من معنى. والسؤال عن ذات التفسير أو علم الهرمنيوطيقا وماهيّته وتحليل مسائله يمكن أن يجيب عن الانتقادات في مختلف المجالات؛ الثقافيّة، والفنيّة، والاجتماعيّة، والتاريخيّة، والفلسفيّة، والدينيّة، وذلك من خلال التوسّع في العلم والفهم والتكامل في المعرفة الإنسانيّة.

والعلاقة بين النصّ والهرمنيوطيقا إنّما تتّضح عندما يكون هناك نصّ نريد أنْ نفهم معناه، فنبحث عمّا يكشف عن هذا المعنى.

إنّ شلايرماخر إنّما طرح فقه اللغة وقواعده، ثمّ طرح في ما بعد الجانب الفنيّ والحالة النفسيّة وعنصر الحدس والشهود، لأجل أنْ يشمل بذلك جميع النصوص؛ وهذا يعني أنّ النصّ أكان خطابيًّا أم كتابيًّا، فإنَّ جميع هذه العناصر تدخل في فهمه. وعليه؛ فبمجرد قراءة الألفاظ والاصطلاحات لا يمكن الوصول إلى المعنى المقصود وراء الألفاظ؛ إذ مضافًا إلى كلّ تلك الأبحاث التي طرحها شلايرماخر لا بدّ من الخوض في الحالة النفسيّة والتحليل النفسيّ للمفسِّر والمؤلِّف؛ وحينئذ يمكن الكشف عن معاني الألفاظ.

ومن وجهة نظر شلايرماخر، وكذلك دِلتاي، فالفهم عبارة عن إعادة بناء الحالة النفسيّة، وموضوع الفهم هو المعنى الحقيقيّ للنصّ الذي وصل إلينا منذ زمن بعيد من مؤلِّف لم يعد موجودًا. وإعادة البناء إنّما تتمّ إذا كان ثمّة صلة تصل بين الماضي والحاضر، وبين النصّ والمفسِّر؛ وبذلك يحصل الارتباط بين الكاتب والقارئ؛ وحينئذ تحصل عمليّة إعادة بناء الحالة النفسيّة.

ويرى دِلتاي أنّ النصَّ حاكٍ عن أفكار المؤلِّف ومقاصده، وعلى المفسِّر أنْ يعيش أفق رؤية الكاتب؛ ليكون قادرًا على خَلْق تجربة جديدة؛ نظير تجربة المؤلِّف. فالعلاقة الأساس بين المؤلِّف والقارئ، ومع غضِّ النظر عن البعد الزمانيّ، هي عبارة عن الإنسانيّة المشتركة بينهما، وبناء الحالة النفسيّة المشتركة أو الوعي بمنزلة الأرضيّة للقدرة الشهوديّة لغرض الانسجام والوئام مع الآخرين.

رابعًا: أسلوب الصياغة ودوره في فهم قصد المؤلِّف عند شلايرماخر:

من الأمور الدخيلة في كشف مراد المؤلِّف: الالتفات إلى مقولة أسلوب الصياغة والأدب؛ فأسلوب صياغة شلايرماخر كان محطّ أنظار كثيرين من أصحاب الرأي، حتّى إنَّ هذه المسألة حازت على اهتمام كبير من قبل العلماء والمفكّرين في العلم والأدب الفارسيّ. إنّ غاية ما يستفاد من بحث معرفة الأسلوب في هرمنيوطيقا شلايرماخرإنّما هو في مجال تفسير الحالة النفسيّة؛ وذلك أنّ للهوية الشخصيّة للمؤلِّف أثرًا في أسلوب الصياغة. وبعبارة

أخرى: الهوية الفرديّة للكاتب تنعكس في مؤلّفاته، وأسلوب الكتابة وطريقتها هي في الواقع مرآةٌ لكيفيّة تفكير صاحب النصّ والأثر؛ ولذا فقد أكَّد أهميّة ومحوريّة فهم أسلوب الصياغة في معرفة الحالة النفسيّة، إلى درجة أنّه اعتبر أنَّ الهدف الأساس للهرمنيوطيقا هو الفهم الكامل لأسلوب الصياغة. إذًا، فهدف الهرمنيوطيقا هو معرفة الطريقة والأسلوب لصياغة النصّ، والمعرفة التامّة للأسلوب تتوقّف على معرفة الهوية الشخصيّة للمؤلِّف والكاتب.

خامسًا: الفكر واللغة عنصران لا ينفكّان أبدًا عند شلايرماخر:

يرى شلايرماخر أنَّ الفكر واللغة لا ينفكّ أحدهما عن الآخر، فالأسلوب يتجلّى في اللغة وقواعد الكتابة، وهو مرآة لهويّة مؤلِّفه الشخصيّة، واللغة حاكية عن فكر المؤلِّف. وهذه المسألة لا تختصّ بالنصوص، بل تشمل كلّ ظاهرة فنيّة؛ لأنّها تعكس نوع تفكير مُوجدها. وبناءً عليه، كان التلازم بين الفكر واللغة دائميًّا.

وتجدر الإشارة إلى أنّ جميع أبحاث غادامير وريكور التي تتعلّق باللغة مأخوذة من مباحث شلايرماخر وآرائه اللغوية التي طرحها في مباحث علم النفس.

سادسًا: الأسلوب والأفكار والشخصيّة عند شلايرماخر:

حازت ثلاثة مصطلحات (الأسلوب، الأفكار، الشخصيّة) أهمّيّة كبيرة في أبحاث شلايرماخر، فالأسلوب ناشئ عن نوع تفكير المؤلِّف أو المتكلِّم، والأفكار ناشئة عن شخصيّة المؤلِّف والمتكلِّم. وبتعبير آخر: الخطابات والنصوص تابعة للأفكار التي تُوجب وجود الخطاب أو النصّ. وفي الواقع، يمكن التعرّف على شخصيّات كثيرٍ من المؤلِّفين من خلال كتاباتهم وآثارهم. وعليه؛ فكيفيّة تفكير المؤلِّف ومقدار معرفته ونظرته الكونيّة،كلّها قابلة للكشف من خلال سلوكه وآثاره.

ويذهب شلايرماخر إلى إمكانيّة معرفة أفكار المؤلِّف وشخصيّته من خلال معرفة أسلوبه، وإنْ كنّا لا نعرف المؤلِّف ونجهل أفكاره، وليس لدينا اطّلاع على الظروف الزمانيّة المحيطة بالمؤلِّف عندما صدر منه الأثر. ومن وجهة نظر شلايرماخر، يمكن معرفة كيفيّة تفكير المؤلِّف من خلال

معرفة شخصيّته، ثمّ من خلال التحليل ومعرفة كيفيّة تفكيره يمكن معرفة كيفيّة تركيب الكلمات وتأليفها. وبناءً على ذلك، لابدَّ لفهم مقصود المؤلِّف ومراده من معرفة شخصيّته بالدرجة الأولى، ثمّ الالتفات والتوجّه إلى الأمور الأخرى، من معرفة أفكاره وأسلوبه بالدرجة الثانية.

ويرى شلايرماخر أنّه عندما تُكتب مقالة ونحن المخاطبون بها، فعلينا أنْ نسعى إلى قراءتها وفهمها من خلال السير بشكل عكسيّ؛ أي علينا أوّلًا أن نتعرَّف على أسلوب المؤلِّف، ثمَّ نقوم بتقويم أفكاره، وأخيرًا نحقّق في شخصيّته. وهو بذلك يريد أن يُفهِمَنا أنّ بإمكاننا من خلال هذه الطريقة أن نصل إلى المعنى الحقيقيّ والنهائيّ للنصّ، أو يمكننا ادّعاء ذلك على الأقلّ.

وعندما يريد شلايرماخر أن يبيِّن مقصوده فإنّه غالبًا ما يضرب لذلك أمثلة؛ ومن الأمثلة التي يضربها أنّ شخصًا إذا أراد أن يتكلَّم بشكل رومانسيّ وشاعريّ، فإنَّه يفكِّر بشكل رومانسيّ وشاعريّ، وعندما يريد أحد أن يتكلَّم عن العرفان، فإنّه يفكِّر بشكل عرفانيّ، وكذلك الأمر في مجال السلوك والأخلاق، حيث يقول إنّ المتكبِّر يظهر تكبُّره في سلوكه أيضًا.

سابعًا: سوء الفهم ونطاقه في فكر شلايرماخر:

وبطرحه لمسألة سوء الفهم (Misunderstanding) يوسِّع شلايرماخر نطاق البحث الهرمنوطيقيّ، حيث يقول إنَّه بسبب سعة عدم الفهم وعموميّته، فإنّ كلّ نصٍّ يحتاج إلى تفسير. ويرى أنَّ الفهم الفنيّ للجُمَل، وكذلك الفهم النفسيّ للنصّ، مبتنٍ على معرفة الهويّة الشخصيّة لصاحب الأثر، وهذا يسبِّب بدوره وحدة النصّ الداخليّة، ويعتمد في التفسير النفسيّ على شخصيّة الشخص المراد. وعندما يصل إلى استخلاص نتائج أبحاثه، يقول: للوصول إلى مغزى المؤلِّف والكاتب لا يجوز أنْ نغفل عن شخصيّة المؤلّف. طبعًا؛ كلامه ليس منحصرًا في النصوص المكتوبة، بل يشمل كلّ ظاهرة؛ مكتوبة كانت أم غير مكتوبة.

ومن هنا، فإنّ شلايرماخر يخالف بشدّة تخصيص الهرمنيوطيقا بمجالات

معيّنة وخاصّة، ويعتقد أنَّ علم الهرمنيوطيقا لا يختصّ بالنصوص المقدّسة، وإنّما يشمل كلّ نصٍّ يحتاج إلى الكشف عن معانيه المبهمة والغامضة. وتجدر الإشارة إلى أنَّ دِلتاي قام لأجل ذلك بتعميم الهرمنيوطيقا إلى العلوم الإنسانيّة، وصياغة نظام جديد بالاعتماد على أبحاث شلايرماخر، وذلك من خلال المساواة بين العلوم التجريبيّة والعلوم الإنسانيّة، وبات يُطلق اليوم على هرمنيوطيقا دِلتاي اسم «هرمنيوطيقا العلوم الإنسانيّة». وهو في هرمنيوطيقاه بصدد إجراء تطبيقٍ لقصد شلايرماخر ومراده في العلوم الإنسانيّة.

ثامنًا: الحسّ المشترك عنصر أساس في الهرمنيوطيقا عند شلايرماخر:

يُعدّ الحسّ المشترك (common sense) عنصرًا أساسًا ومحوريًّا ونعمة إلهيّة يحتاج إليها البشرفي أصول الفهم، وقد أكَّد عليه شلايرماخر؛ إذإنَّ الإدراكات والأحاسيس مشتركة بين البشر، ولذلك يستطيع الإنسان أن يجعل نفسه مكان الآخرين ويعيش الأجواء التي يعيشها غيره. وبعبارة أخرى: يستطيع الإنسان أن يعيش الظروف والشروط المحيطة التي كان يعيشها المؤلِّف؛ وكأنَّه يعيد صياغة النصّ وتقريره، وإنْ كان ذلك قد يؤدّي إلى إيجاد معنى جديد وراء قلم المؤلِّفأو مراده.

ويشترط في فهم النصّ التعرّف جيّدًاعلى شخصيّة المؤلِّف في مرحلة سابقة، والاطّلاع على الظروف المحيطة بذهن المؤلِّف عند صياغته للأثر، وهو بعينه الالتفات إلى الجوانب النفسيّة للمؤلِّف التي يتوقّف عليها فهم النصّ. ومن جهة أخرى، لا يمكن التعرّف على المؤلِّف إلا من خلال النصّ.

وتجدر الإشارة إلى أنّ اشتراك البشر في الإدراك هو من المواضيع الأخرى التي طرحها شلايرماخر، والتفت إليها علماؤنا، وتعرَّضوا لها كثيرًا في النصوص الدينيّة والفلسفة الإسلاميّة، على أنّ المراد من الحسّ المشترك هو الأعمّ من الإدراكات الحسيّة، والعقليّة، والوهميّة، والمراد من الإدراكات الوهميّة هو الإدراكات التي تحكي عن المفاهيم الجزئيّة غير الحسيّة؛ نظير: الحب، والخوف، والحزن.

فهناك إمكانيّة لحلول القارئ محلّ صاحب الأثر والمؤلِّف، ومشاكلته في إدراكه دائمًا، وقد أكّدت النصوص الدينيّة على أنْ يجعل الإنسان نفسه مكان الآخرين، ويعيش الظروف التي كان يعيشها غيره كثيرًا؛ ومن باب المثال: المسائل الأخلاقيّة والسلوكيّة في نهج البلاغة، وكذلك كتاب أصول الكافي قد أشار إلى هذه المسألة بشكل كبير، ومن جملة ذلك الروايات التي أكّدت على أنَّ ما لا يتمنّاه المرء لنفسه لا يتمنّاه لغيره، ومن جملتها -أيضًا- ما ورد عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في وصيّته لابنه الإمام الحسن عليه السلام[1] أنَّ شخصًا إذا أراد أن يتعدَّى على حقوق غيره، فعليه أنْ يجعل نفسه مكانه؛ ليرى أنّه إذا اعتُدي عليه فما هي ردّة الفعل التي يبديها اتّجاه ذلك. وكذلك توجد بعض الآيات التي تشير إلى ذلك؛ كالآيات التي تحكي قصص الماضين وتؤكِّد على أخذ العبر منهم وممّا جرى عليهم، وهذا الأمر لا يتمُّ إلا إذا حلَّلنا التاريخ وعشنا تلك الظروف التي عاشها هؤلاء. وقد صرَّحت بعض الروايات بذلك؛ كالروايات التي تأمرنا بالاقتداء بمن هم أسوة وقدوة في المجتمع. وهذه التوصيات تدلّ على إمكانيّة أنْ يجعل الإنسان نفسه مكان الآخرين، وأن ينقطع عن الوسط المحيط والظروف الشخصيّة التي يعيش فيها.

خاتمة:

تقدَّم في هذه المقالة عرضٌ وتحليلٌ للطرح الهرمنيوطيقيّ عند شلايرماخر، حيث ذهب إلى ضرورة عدم الانفكاك عن الظروف الفرديّة والشخصيّة في عمليّة الفهم، وجَعْل النفس مكان الآخر والعيش في ظروفه، وتفعيل الحسّ المشترك (Common sense) للحصول على فهم عميق للنصّ وإدراك دقيق لمراد صاحبه.

(1) الشريف الرضيّ، محمد بن الحسين بن موسى العلويّ: نهج البلاغة(الجامع لخطب أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ورسائله وحكمه)، شرح: محمد عبده، ط1، دار الذخائر، قم المقدّسة، 1412هـ ق، ج3، ص45.

ويعتقد شلايرماخر أنَّ للمتن معنى وحيدًا وفريدًا، ويقول بتعيّن المعنى وانحصاره، وبوجود حدود ومعايير (Validity) يجب مراعاتها واحترامها. واليوم، إن لم نستطع اختصار الفاصل الزمانيّ بيننا وبين الماضي أو إدراك شرائطه، فلن نكون قادرين على أخذ العبرة من النصوص الدينيّة والعمل بكثير من التوصيات والتوضيحات التي وردت في النصوص الدينيّة؛ والتي هي نفسها صرّحت بإمكانيّة ومطلوبيّة جعل النفس مكان الآخرين ومشاركتهم تجاربهم الإدراكيّة.

وقد أكَّد شلايرماخر في مباحثه بشكل كبير على أنَّ الإنسان مصاب بداء سوء الفهم الذي لا علاج له أبدًا. ومن هنا، فإنَّ كلّ نصٍّ يحتاج إلى تفسير، وأمّا القول بأنَّ فهم ظواهر الكلام العرفيّة يتمّ من الأصول الحاكمة على النصوص والخطابات، فهو مخالف لسوء الفهم عند شلايرماخر الذي وصلنا إليه عن طريق الكتاب والسُنّة. وبتعبير آخر: فرجوع المجتهد والمفسِّر إلى العرف في بعض الأحكام، وجعله ملاكًا أساسًا في فهم الخطابات مخالف لما ذهب إليه شلايرماخر. طبعًا؛ سوء الفهم عند شلايرماخر عامّ وشامل إلى درجة أنَّه يشمل مباحثه وخطاباته. ولذا، فإنَّنا نرى أنّ هذا الإشكال لا يمكن حلّه كما لا يمكن الدفاع عن نظريّته في سوء الفهم.

وقد أكَّد علماؤنا الأصوليّون والمفسِّرون على بحث الفهم العرفيّ وظواهر الكلام، ويُستفاد من ذلك أنْ لا محلّ يُذكر لسوء الفهم في تفسير نصوصنا الدينيّة، وكلّما احتملنا أنَّ ثمّة معنًى مخالفًا، فإنّنا طبقًا للقواعد نحكم بمخالفته للواقع، لكنَّ ذلك لا يعني أنَّ سوء الفهم مقيّد للإنسان دائمًا، فمن باب المثال: عندما تصلك رسالة من صديق، فذلك لا يعني أن تفكِّر قبل فتح الرسالة أنَّك سوف تُبتلى بسوء الفهم عندما تفتحها وتقرأها. ونحن نرى أنَّ إبهام النصّ ليس ذاتيًّا، وإنْ كان ثمّة كثير من النصوص واضحة وبيّنة، ويمكن من خلال القوانين السابقة فهم المعنى الحقيقيّ لها. وأمّا النصوص المبهمة التي تحتاج إلى تفسير، فإنّها تحتاج إلى تعمُّق

في التحليل النفسيّ -بتعبير شلايرماخر- للتمكُّن من التعرُّف على شخصيّة المؤلِّف وأفكاره وأسلوبه.

ويرى شلايرماخر أنّه حتّى المحكمات من النصوص الدينيّة مبتلاة بسوء الفهم أيضًا، ولكنّ واقع الأمر ليس كذلك، فليس صحيحًا أنَّنا لا نستطيع أن نفهم أيّ شيء من المحكمات من النصوص الدينيّة ولو على مستوى الفهم العادي والبسيط؛ بدعوى أنَّ البشر مُبتلون بسوء الفهم؛ لنقول -بناءً عليه- بضرورة الاعتماد على الهرمنيوطيقا في فهم مراد المؤلِّف حتى في هذه النصوص! لقد افترض شلايرماخر أنَّ من الواجب في عمليَّة الفهم طيُّ مرحلة التعرّف على الأسلوب والفكر والشخصيّة قبل أن نصل إلى المعنى النهائيّ؛ بل إلى ما وراءه، ولا يمكن إنكار دور الخلفيّات الذهنيّة والفرضيّات في فهم النصوص الدينيّة، حتَّى النصّ القرآنيّ، على نحو الموجبة الجزئيّة طبعًا. مثلًا: إذا كنّا نريد أن نفهم آيات الحجّ، فلابدَّمن أن نرجع إلى تاريخ اليهود، وإبراهيم عليه السلام... وعلى أيّ حال إذا أردنا أنْ نفهم معاني الآيات القرآنيّة، فلا بدّ من أن نطّلع على أسباب نزول هذه الآيات ومعاني الكلمات والاصطلاحات بشكل جيّد. ولذلك قيل: لا بدَّ في تفسير النصوص الدينيّة وفهمها من الالتفات إلى الظروف التاريخيّة والشروط المحيطة الحاكمة في زمن صدور هذه النصوص وعدم الغفلة عنها، لكنَّ الفرضيات لا حديث عنها في أصولنا، وبناءً على هذا الكلام -كلام شلايرماخر- نقول إنَّه عندما يتبادر إلى الذهن معنى معيّن من مقطع ما نسأل: هل هذا المعنى بعينه هو المتبادر في زمان رسول الله صلى الله عليه وآله أم لا؟ هل فَهِمَ زرارة بن أعين؛ وهو أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام هذا المعنى من كلام الإمام الصادق عليه السلام أم لا؟

فإذا أردت أن تفهم المعنى الواقعيّ للحديث يجب أن تعيش الظروف والبيئة المحيطة التي كان يعيشها أمثال زرارة في المدينة أو في غيرها.

وصحيح أنّنا ميتافيزيقيًّا نختلف عن الأفراد الذين كانوا قبل عشرة قرون، ولكنّنا يجب أنْ نسعى إلى الاقتراب منهم قدر الإمكان. نحن لا ندّعي أنّنا يجب أنْ نكون مثلهم تمامًا؛ بل حتَّى شلايرماخر لا يدّعي ذلك، وفي بحث

الهرمنيوطيقا الرومانسيّة يتكهّن ويقول: إذا قلنا لكم اطووا هذه المرحلة واذهبوا إلى زمان غادامير، سوف تقولون إنّ فعل ذلك غير ممكن، ولا يمكن لكم الخروج والتخلّي عن هويّتكم الشخصيّة؛ وذلك أنّ شخصيّتكم جُبِلَت بكم؛ حيث لا يمكنكم الانفصال عنها؛ لتنفذوا في ذهن المؤلِّف. ولكنّ شلايرماخر يعتقد بإمكانيّة التخلّي عن الهويّة الشخصيّة، دون القول بإمكانيّة النفاذ إلى ذهن المؤلِّف وصاحب الأثر مئة بالمئة. نعم؛ يمكن ذلك إلى حدٍّ معيّن.

ونحن -أيضًا- نؤيِّد ذلك، حيث لا يمكن أن نكون مثل زرارة، ولا نقول إنَّ على زرارة اليوم أن يأتي إلينا؛ لكي نفهم هذا النصّ؛ فماذا يمكن أنْ نفهم من النصّ على فرض كان زرارة موجودًا اليوم في هذه البيئة والظروف الحاكمة على البشر. نحن لا نستطيع أن نقول بذلك؛ إذ ليس من المفترض أن نذهب بأنفسنا إلى ذلك الطرف؛ وإنّما ينبغي الاقتراب من عصر صدور النصّ الديني حتَّى نستطيع فهم كلام الله سبحانه وتعالى وكلام المعصوم عليه السلام؛ لأنّنا مجرّد مستمعين إلى رسائل شفهيّة.

ومن الأبحاث الأخرى التي طرحها شلايرماخر: كيفيّة التعامل مع فهم الحالة النفسيّة، وهو ما يمكن قبوله في الجملة. فمن الأمور التي تمتاز بها الحالة النفسيّة والفرضيّات الذهنيّة أنَّ لها تأثيرًا في الخطاب وكلام المتكلِّم، ويمكن التعرُّف عليها عن طريق الأسلوب. وقد أشارت بعض الآيات الكريمة إلى ذلك؛ نظير قوله تعالى: ﴿وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ﴾[1]؛ فما كان يجري على لسان المنافقين لم يكن مرادًا حقيقيًّا لهم، وكان عملهم مخالفًا لقولهم، والآية الكريمة تقول إنَّ لحن قولهم يدلّ على نفاقهم. إذًا، يمكن فهم المعنى من لحن كلام المتكلّم، فمراده يظهر من لحن كلامه، وإنْ كان ظاهره لا يدلّ عليه ومخالف له، وفي الحديث: «**الإنسان مخبوء تحت لسانه**»[2]. ماذا يعني هذا الكلام؟ يعني أنَّه لا يمكن معرفة المخبوء في الضمير ما لم يحرِّك الإنسان لسانه بالقول. إذًا، فمن خلال الأسلوب وطريقة صياغة الكلمات والاصطلاحات يمكن التعرُّف على كيفيّة تفكير المتكلِّم ومراده.

(1) سورة محمد، الآية30.
(2) الشريف الرضي، نهج البلاغة، م.س، ج4، ح148، ص38.